المحاضرة الثانية: حضارات الجزائر فيما قبل التاريخ

تمهيد:

أثبتت الدراسات الحديثة أن حضارات إنسان ما قبل التاريخ التي اكتشفت في العالم كانت مختلفة الصفات ولم تكن متشابهة بالقدر الكافي مع بعضها البعض كما كان يعتقد في الماضي، بل لقد بلغت درجة الاختلاف بينها حدا كبيرا أدى بالباحثين إلى عدم الاستمرار في اتباع المنهج الفرنسي المتمثل في التقسيمات الحضارية التي وضعها هؤلاء الباحثون دون توضيح الميزات المحلية لكل منطقة وخصائص كل حضارة، ورغم هذا التباين فإن الدارس...

أولا-مراحل العصور ما قبل التاريخ:

1-مراحل العصور الحجرية Stone Ages**:**

1.1-العصر الباليوليتيpaléolithique **(العصر الحجري القديم):** ويعني الفترة القديمة للصناعات الحجرية التي تمتد من حوالي 2.3 مليون سنة إلى حوالي 12 ألف سنة ق.م، وينقسم العصر الحجري إلى ثلاث فترات متفاوتة الزمن:

- **العصر الباليوليتي الأسفل:** يعتبر أقدم فترات الصناعات الحجرية وفيه مرحلتين: الباليوليتي القديم جدا الذي يمتد من حوالي 2.3 مليون سنة إلى حوالي 1.4 مليون سنة، والباليوليتي القديم الذي يمتد من حوالي 1.3مليون سنة إلى غاية0.1 مليون سنة ق.م وفيه تطورت الصناعة من حجرية إلى أشولية سواء كانت تحتوي فؤوس يدوية أو لا، وبالتالي شهد تطور الحضارة الأشولية.
- **العصر الباليوليتي الأوسط:** يقترن وجوده بالحضارة الموستيرية لمدة قصيرة جدا لتعوض بحضارة محلية تسمى الحضارة العاترية، وهذه الفترة تمتد من حوالي 100ألف سنة إلى 37ألف سنة ق.م في أوربا ويتواصل إلى حوالي 20الف سنة ق.م في بلاد المغرب.
- **العصر الباليوليتي الأعلى:** عرف صناعات حجرية معقدة لتعدد الحضارات في منطقة واحدة وعلى الأرجح لا يوجد لأي حضارة في بلاد المغرب خلال هذه الفترة.
- العصر ما بعد الباليوليتي: وهو العصر الحجري القديم المتأخر، وهو فترة حضارية مهمة في تاريخ بلاد المغرب تميزت بظهور صناعة حجرية قزمية دقيقة الصنع وصناعة عظمية، ونشأت خلالها حضارتين هما: الحضارة الإيبرمورسية أو الحضارة الوهرانية وموطنها في الغالب السواحل المتوسطية، والحضارة القفصية وتتركز بالمناطق الداخلية.

2.1-العصر الميزوليتي (العصر الحجري الوسيط): ويمتد من 12ألف سنة ق.م إلى 8000 سنة ق.م وهو فترة حضارية قصيرة انتقالية تتوسط الباليوليتيوالتيوليتي مظاهرها تبرز في أوربا وتنعدم في بلاد المغرب، تتميز بصناعة حجرية قزمية دقيقة الصنع.

3.1-العصر النيوليتي (العصر الحجري الحديث): ويمتد من 8000سنة ق.م إلى غاية 5000سنة ق.م وهو آخر العصور الحجرية يتصف بعدة خصائص تجعله متميز عما سبقه، إذ حدثت به تغيرات جذرية في حياة الإنسان ونمط معيشته، وتميز بظهور أدوات حجرية جديدة وتقنيات صناعة الأواني الفخارية لتخزين الحبوب والسوائل التي أنتجها الإنسان النيوليتي بعد اكتشافه للزراعة واستأناسه بالحيوانات.

وفي بلاد المغرب توجد العديد من مظاهر هذا العصر، وبنهاية هذا العصر جاء عصر المعادن المتمثل في العصر النحاسي والبرونزي والحديدي والممتد من 5000سنة ق.م إلى 3000سنة ق.م.(سحنوني، 1999، صفحة 82)

4.1-عصر المعادن:

دراسات قليلة جدا اهتمت بفترة التعدين القديم في إفريقيا، فبالنسبة لشمال إفريقيا لم يتحدث الباحثون على هذه الفترة أو نفي وجود عصر النحاس والبرونز تماما وخاصة في الجزائر وتونس حتى مجيء الفينيقيين تقريبا في القرن12 ق.م، على عكس المغرب توجد بها بعض آثار العصر النحاسي.

ثانيا-أنواع الحضارات ماقبل التاريخ في الجزائر:

مما سبق عرضه حول العصور الحجرية ما قبل التاريخ يمكننا التفصيل أكثر في أبرز الحضارات القديمة التي مرت بالجزائر والمتمثلة فيما يلي:

1-الحضارة الأشولية:

استخدم الإنسان في فجر هذا العصر حجر الصوان في صناعة أدواته وكانت على شكل قطع مسطحة ذات حواف مسننة نتيجة عملية التشظية عرفت بالأداة ذات الوجهين، وكان الإنسان يستخدم في صناعة هذه الآلات تقنيات مختلفة، وقد تطورت هذه الصناعة الحجرية بعد ذلك فظهرت الفأس اليدوية التي تميزت بشكلها الكمثري وجوانبها الحادة غير المنتظمة، وإذا كان العلماء قد شككوا في بداية الامر أن تكون مثل هذه الأدوات من صنع الإنسان إلا أن ازدياد العثور على مثل هذه الأدوات وبكميات كبيرة في أماكن مختلفة وإلى جانب بقايا حيوانية لم تدع مجالا للشك في أنها ليست من صنع الطبيعة، وتنتمي هذه الصناعة إلى ما يعرف بالحضارة الأشولية نسبة الى موقع سانت أشول بفرنسا الذي تم الكشف فيه على هذه الفؤوس الحجرية لأول مرة، وتسمى أدواتها باسم صناعة النواة ، لأنها كانت تصنع مباشرة من نواة الصوان، حيث يقوم الانسان بإدخال بعض التحسينات على وجهيها عن طريق الطرق قصد الحصول على حافة حادة أما زمنيا فتعتبر من حضارات العصر الحجري القديم الأسفل.

ظهرت هذه الصناعة الأشولية أول الأمر في إفريقيا الشرقية ثم انتشرت فيما بعد في افريقيا الشمالية والشرق الاوسط وتوسع مجالها بعد ذلك ليشمل مختلف مناطق اوروبا وقد عثر على آثار هذه الحضارة في عدد من المواقع في الجزائر كعين الكرمة جنوب مدينة الشلف التي تقع غرب الجزائر، ومحجر مارتين ودوبري، وعين فريطسة، وعين الحنش الذي يقع على بعد تسعة كيلومترات إلى الشمال الغربي من مدينة العلمة بولاية سطيف في الشرق الجزائري والذي يحتضن ثاني أقدم صناعة حجرية في العالم أرخت بـ 2.4 مليون سنة بعد أثيوبيا بـ 2.6 مليون سنة.

نماذج عن أدوات حجرية أشولية وجدت بالجزائر:

2-الحضارة الموستيرية:

استمدت الحضارة الموستيرية اسمها من موقع موستيرLe Moustier (بالدردون[1]Dordogne بفرنسا)

وإذا كان مكان نشأة هذه الحضارة غير واضح عند الباحثين فإن فلير يرى أنها نشأت في أواسط آسيا حيث ظهرت أدوات يمكن أن نسميها ما قبل الموستيرية حملها أصحابها النياندرتاليونNeanderthal(الإنسان العاقل) معهم في هجراتهم إلى أوربا من جهة وإلى افريقيا عن طريق منطقة السهوب الاسيوية من جهة ثانية. ويعود ظهور الحضارة الموستيرية في أوربا إلى حوالي 200 ألف سنة قبل الميلاد في بعض المناطق، واستمرت إلى غاية 40ألف سنة، فهي بذلك تغطي كامل العصر الحجري القديم الأوسط، في حين يرجع الباحثون انتشارها في شمال إفريقيا إلى ما بين 80.000 و 50.000 سنة قبل وقتنا الحاضر. ويمكن حصر أدواتها المصنعة من الشظايا الصوانية الدقيقة المشذبة والمدببة الأطراف، في مختلف الإستخدامات اليومية كالسكاكين، والمحكات، والمكاشط ذات الحافة، والأدوات المسننة، وانتشرت هذه الصناعة في كامل أفريقيا الشمالية والصحراء .

وأما من الناحية الأنثربولوجية فقد حدث تطور كبير في هذه الفترة، حيث ظهر إنسان نياندرتال الذي يعتبره المختصون أقدم أجداد الإنسان الحالي. لقد وسع هذا الكائن البشري دائرة انتشاره لتشمل مناطق واسعة من العالم حيث بلغ مناطق شمال أوربا وشرق آسيا ومناطق مجاورة للمناطق الاستوائية في أفريقيا لم يدخلها أحد قبله، حقق فيها تقدما على الصعيد الاقتصادي والاجتماعي معتمدا على تراث سابقيه ومضيفا إليه الانجاز تلو الآخر الى أن أصبح أكثر تطورا.

أما حضاريا فإن هذه الفترة في شمال إفريقيا بدت للباحثين غير واضحة المعالم حيث لم يتوصلوا إلى التعرف عليها بشكل جيد وأن أهم ما يميزها خصوصا أدواتها البسيطة التي تتضمن الشظايا، والتي تشبه في مظهرها العام الموستيريةالأوروبية. وقد ساد الاعتقاد لدى العديد من الباحثين بعدم وجود مثل هذه الحضارة في بلاد المغرب لكونها لا تختلف كثيرا عن الحضارة العاترية، وعلى الرغم من قلة مواقعها في الصحراء التي من بينها موقع قرب" إنيكير"، وموقع آخر في "تين تمات" في الهقار، أما في الطاسيلي فقد وجدت في "تين هناكتن" و"تيوريرين"، كما وجدت في الصحراء الشمالية قرب غرداية وفي متليلي. فإن ما تضمنه موقع واحة بريزينة في شمال الأطلس الصحراوي من مستويين حضاريين متميزين تفصل بينهما طبقة من الرمال الخشنة والحصباء. تكشف محتويات المستوى السفلي عن صناعة شظية خشنة ذات تقنية "لافلوازية" وحجارة مشذبة، بينما تضمن المستوى العلوي بقايا صناعة عاترية، وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على التتابع الحضاري في الجزائر وغناه. والجدير بالذكر ان الفضل في التمييز بين الحضارتين يرجع الى الباحث ب.أستورج.

[1]منطقة الدردون: هي منطقة جرت فيها أول دراسات ما قبل التاريخ وأهمها.

3-الحضارة الإيبيرومغربية (الحضارة الإيبيروموريسية أو الحضارة الوهرانية):

يعود الفضل في اكتشاف موقع المويلح بالغرب الجزائري قرب مدينة مغنية إلى الباحث بول بالاري (P.Pallary)الذي زار المنطقة خلال سنة 1899، ثم لاحظ أدواتها الميكروليتية، وقد شرع في تنقيب الموقع للمرة الأولى سنة 1907 على يد الباحث باربانBarbinسنة 1919م، وتعود تسميتها بالإيبيرومغربية إلى اعتقادالباحثين الذين درسوا أدوات الموقع بأنها ذات صلة بحضارة العصر الحجري القديم الأعلى في شبه الجزيرة الإيبيرية.(غانم، 1999، صفحة 115)

كما أن دراسات الباحث الفرنسي فوفريR.Vaufrey وتحرياته التي قام بها في عدة مواقع بالجزائر جعلته يفضل تسميتها بالحضارة الوهرانية نسبة إلى الإقليم الجغرافي الذي اكتشفت فيه، إلا أن هناك من الباحثين من يرى في استعمال هذا المصطلح نوع من التقزيم لهذه الحضارة، وتقييد لمجالها الجغرافي الذي اتضح في ما بعد أنه امتد على طول الساحل الجنوبي للبحر الأبيض المتوسط من خليج قابس بتونس الى شواطئ المحيط الأطلسي، ورغم عدم دقة التسمية الأولى المتمثلة في مصطلح الإبيرومغربية إلا أن تداولها بين الباحثين في البدايات الأولى لاكتشافها جعلها تنتشر بسرعة وتطغى على الوهرانية، فدرج الباحثون على استعمالها مما أدى إلى ترسخها أكثر في الأوساط العلمية. 1100 -400 سنة قبل الميلاد إلى حوالي 5000 سنة قبل الميلاد .

وتتميز الصناعة الابيرومغربية بكثرة الشفرات الصغيرة المهذبة الحافة بواسطة التنقيحات القوية، وبدون شك فهي عبارة عن تقنية عامة طبقت في الادوات ذات الاستعمالات المختلفة، كما يغلب على هذه الأدواتالميكروليتية الطابع الهندسي، وغلبة النصال الصغيرة إلى جانب بعض الأدوات الكبيرة التي غالبا ما ترافقها، كما يسجل حضور صناعة النواة الحجرية الصغيرة ذات النماذج المختلفة والتي طبقت عليها نفس التقنية الصناعية. وتتمثل الأدوات الابيرومغربية في المكاشط القصيرة والسميكة في نفس الوقت والتي كثيرا ما يتم صناعتها من النوى الحجرية الصغيرة، أما الأزاميل فهي بسيطة ونادرة .وتعد صناعة العظام أكثر تنوعا في الحضارة الإبيرومغربية من الأدوات الحجرية فقد صنع هؤلاء الأقوام من البشر الذين ينسبون الى نوع إنسان مشتى العربي - الذي عثر على العديد من بقايا هياكله العظمية في مقابر جماعية في موقعي كلومناطةوأفالوبورمل - من العظام السكاكين، والمحكات، والدبابيس، والخطافات، والرماح. ويعد السكين الشيء الأكثر تميزا في هذه الادوات فهو متطاول الشكل ومسطح، له حافة مستقيمة، وقاعدة مستديرة. هذا بالإضافة إلى الإبر العظمية البسيطة، وعدد كبير من أدوات الزينة تمثلت

في القواقع التي تزينها في الغالب مواد معدنية ملونة. وتقسم الأدوات العظمية من حيث أوجه نهاياتها إلى ثلاث مجموعات رئيسية هي:

- **أدوات ثاقبة ذات نهاية حادة.**
- **أدوات مثلمة ذات نهاية ملساء أو دائرية.**
- **أدوات قاطعة ذات حد مائل.**

وعن صناع هذه الحضارة يرى بعض الباحثين أنهم أحفاد المغاربة ما قبل الانسان العاقل، في حين يرى البعض الآخر أنهم جاءوا إلى هذه المنطقة من بلاد الشرق الأوسط. وهم أقوام يغلب عليهم طابع الاستقرار أكثر من الترحال، احترفوا القنص وجمع القواقع الحلزونية.(وزارة المجاهدين وذوي الحقوق، ما قبل التاريخ: الحضارة الوهرانية (الإبيرومغربية)، 2024)

4--الحضارة العاترية

اكتشفت البقايا الحجرية لهذه الصناعة لأول مرة في موقع وادي جبانة بالقرب من دائرة بئر العاتر بولاية تبسة سنة 1917م على يد الباحث ريجاس(Reygasse)، غيرأن دراسته لم تتم إلا في عام 1974م من طرف ج. موريل (J. Morel)

وقد تمثلت خصوصية هذا الموقع في احتوائه على أدوات حجرية تعود إلى العصر الحجري القديم الأوسط (مكاشط وأدوات مسننةّ) جنبا إلى جنب مع أدوات أخرى تعود إلى العصر الحجري القديم الأعلى كالمكاشط المسطحة، وأدوات أخرى كثيرة ذات سيقان. وقد انطلت هذه الميزة على أغلب مواقعها الى درجة أن تداخل هذه الأدوات الحجرية جعلها متشابكة ومظللة. وقد عرفت هذه الحضارة بادئ الأمر باسم حضارة وادي جبانة نسبة إلى الموقع الذي اكتشفت فيه الأدوات الحجرية الأولى لهذه الحضارة، ثم أصبحت تعرف فيما بعد بالحضارة العاترية.

يعيد المختصون ظهور الحضارة الأشولية إلى نهاية العصر الحجري القديم الأسفل وبداية العصر الحجري القديم الأوسط، ويرجح علماء ما قبل التاريخ أن تكون الحضارة العاترية قد تطورت عنها، إلا أن بحوثا علمية أخرى أكدت أن الحضارة العاترية استمدت أصولها من الموستيرية التي سبقتها اعتمادا على التشابه الموجود بينهما. وتعتبر الحضارة العاترية من أقدم حضارات الإنسان العاقل، حيث شغلت الفترة ما بين 45,000 إلى حوالي 20,000 سنة ق م.

كانت بيئة هذه المنطقة الجغرافية في تلك الفترة تميزها الغابات المطيرة الكثيفة الأشجار، وكثرة الأنهار والينابيع التي كانت تتخللها، وكذا بعض الأنواع الحيوانية، وقد وفر هذا الطابع المناخي الظروف المناسبة لصناع الحضارة العاترية وهم أشباه النياندرتاليين حسب ما خلصت اليه الدراسات للاستقرار بها.

ونظرا للتميز الكبير لصناعات الأدوات الحجرية القديمة في المنطقة، فإن الباحثين يعتبرون أن الحضارة العاترية هي أقدم أنموذج على التنوع التكنولوجي الإقليمي. فبالإضافة إلى انتشارها الواسع فهم يرجحون أن تكون عدة فروع حضارية صغيرة كالوهرانية والقفصية قد انبثقت عنها، حيث بدأت دائرتها تتوسع لتشمل أول الأمر كامل البلدان المغاربية، ثم توسعت حدودها لتغطي المجال الجغرافي الممتد من المحيط الأطلسي غربا إلى نهر النيل شرقا ومن شواطئ البحر الأبيض المتوسط شمالا إلى شمال النيجر والتشاد جنوبا. وقد تنوعت البقايا الحضارية التي عُثِر عليها في موقع بئر العاتر بين أدوات حجرية كالصوان وبقايا رسوم ملونة على جدران الكهوف؛ كما تركت هذه الحضارة عددا من شواهد القبور المزينة بالرسوم. وتشير الدراسات إلى أن الإنسان العاتري اعتمد في غذائه في هذه المنطقة على الحيوانات وبعض أنواع الصدفيات والنباتات، واستعملها أيضا كوسيلة للتداوي، ووظف أخشاب غاباتها في بناء

المساكن وصناعة الأدوات التي احتاج اليها في حياته اليومية. ومع هذا التطور الذي احرزته الحضارة العاترية إلى أنها لم يكتب لها البقاء طويلا إذ سرعان ما اضمحلت، وقد أرجعت المصادر هذا الاضمحلال إلى تغير الظروف المناخية، حيث أعقب فترة ازدهارها مناخ جاف مس هذه المنطقة خاصة والصحراء الأفريقية عامة مما دفع أصحاب هذه الحضارة الذين يعتمدون في حياتهم على الصيد والزراعة إلى الهجرة إلى مناطق أخرى بحثا عن ظروف الحياة، منها الصحراء وبلاد الساحل وبعض مناطق إفريقيا الاستوائية. وربما يكون العاتريون قد واصلوا زحفهم جنوبًا إلى غرب إفريقيا فوصلوا إلى موريتانيا والسنغال. لقد استمرت الحضارة العاترية في الوجود حتي العصر الحجري الحديث حيث توقفت وحلت محلها الحضارة القفصية.

أدوات حجرية عاترية، أهم ما يميزها عن غيرها السيقان الجميلة التي تعبر عن تطور ملحوظ في الصناعة الحجرية

5-الحضارة القفصية:

تعرف مواقع الحضارة القفصية بالرماديات وهي تلال صغيرة يتراوح علوها ما بين 1 و2 متر، ويمكن أن يصل طولها في أقصى الأحوال إلى 150 متر، ويقدر عرضها بحوالي 80متر، وهي تمثل في مجموعها تراكمات تاريخية لبقايا التجمعات البشرية القديمة، مكونة من عناصر رمادية، وأدوات حجرية، وعظام الحيوانات، وقواقع الحلزونيات، ورغم أن اكتشاف هذه الحضارة لأول مرة تم في المنطقة الغربية لتونس إلا أنها عرفت انتشارا واسعا في الجزائر، ومن أهم مواقع الحضارة القفصية في الجزائر نذكر عين عشنة، عين دكارة، الماء الابيض، خنقة الموحاد وتقع في ولاية تبسة، أما أهم مواقعها بمنطقة سطيف فهي: عين بوشريط، المجاز2، وتقع أهم مواقعها في المناطق الجنوبية بـ: عين الناقة، زكار، دخلة السعدان، المرموطة، الحويتة ـونجد في منطقة تيارت الموقعين التاليين: نجد عين كده، كلومناطة. وتتميز الأدوات الحضارية القفصية المكتشفة بمنطقة تبسة والتي يعود تاريخها إلى نهاية الألفية السادسة قبل الميلاد بأشكالها الهندسية وبمادتها الحجرية المستعملة غالبا في صناعتها .

يعتقد أغلب الباحثين أن الإنسان القفصي قد عاش حياة مستقرة، ويعتقد البعض الآخر أنه كان يعيش حياة ترحال موسمية. وقد وقع الباحثون لفترة طويلة في ضرب من الخلط والالتباس بين إنسان الحضارة القفصية وإنسان مشتى العربي، إلا أنهم، مع ذلك، أدركوا أن الأمر يتعلق بنوع آخر من البشر الذين عاشوا في العصر الحجري الحديث، كما دلت عليه بقاياه العظمية التي عثر عليها في موقع عين مترشم، وقد تبين لهم اعتمادا على بقاياه المكتشفة في مواقع استقراره أن هؤلاء البشر كانوا يمارسون نشاط الصقل والنحت وصناعة رؤوس السهام، والفخار، والزراعة، وتربية الحيوانات.

نماذج عن أدوات حجرية قفصية وجدت بالجزائر:شفرات حجرية قفصية

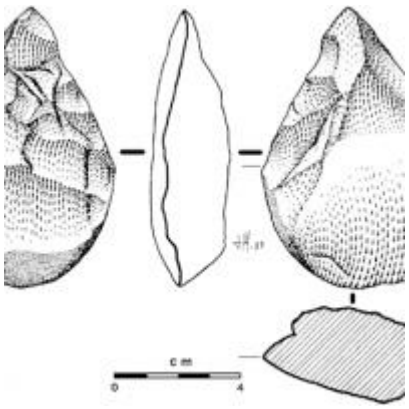
cm
0
4